قِرَاءَتَا التَّخْفِيفِ بِالِإتبَاعِ في:

(الحَمْدُ لُلهِ) و (الحَمْدِ لِلهِ)

دِرَاسَةً لُغَوِيَّةً

إعـــــداد

د/ عبد الرحمن بن عيسى بن علي الحازمي

أستاذ مشارك بقسم اللغويات ـ كلية الغة العربية

الجامعة الإسلامية ـ المدينة المنورة ـ المملكة العربية السعودية

تاريخ الاستلام : ١٩/ ٣/٢٠٢١م

تاريخ القبول : ٢١/ ٣/٢٠٢١م

المُلَخَّصُ:

التَّخفيفُ في الُّلغَةِ من مَطَالبِ الّلسَانِ العَرَبيّ؛ لِمَا فيهِ مِنْ تَسْهِيلٍ وتَيْسِيرٍ، فَالعَربيُّ يَجْنَحُ لِلإِيْجَازِ مَا اسْطَاعَ إلى ذلكَ سَبيلًا، ومِن صُوَرِ التخفيف عندَ الَعربِ الإِتْبَاعُ الصَّوتِيُّ في الحَرَكَاتِ؛ نُفُورًا مِن ثِقَلِ بَعْضِ المَخَارِجِ، وقد جَاءَت قِرَاءَاتٌ قُرْآنِيَّةٌ مُؤَيِّدةٌ هذه الَّظاهِرَةَ.

في هَذِهِ الأَوْرَاقِ تَنَاوَلْتُ ظَاهِرَةَ الَّتخْفيفِ بِالإِتْبَاعِ فِي (الْحَمْدُ للهِ) وهِي أَوَّلُ آيةٍ فِي سُورَةِ الفَاتِحَةِ في القُرْآنِ الكَرِيمِ، وَأَصَّلْتُ ثُبُوتَ هذه القِرَاءَةِ، وَعَضَّدْتُ ورُودَهَا بِالأَدِلَّةِ مِن كَلاَمِ العَرَبِ وَ أَقْوَالِ العُلَمَاءِ.

الكلمات الافتتاحيّة : قِرَاْءَ ة – شَاذَّة – تَخْفِيف – إِتْبَاع – تَسْهِيل.

Abstract:

Mitigation is one of the requirements of the Arabic tongue for its simplification and facilitation. Arabs tend to curtail whenever possible ،and one of the forms of curtailment in the Arabic language is mitigation,which comes in many forms, such as sequencing of diacritics and aversion of heavy phonetics. And many recitations and readings of the Holy Quran have supported this phenomenon in the Arabic language.

In this paper, I examine the phenomenon of Mitigation by diacritics sequencing in the first verse of Surat Al-Fatihah, “Alhamdulillah” (translated to “Praise be to Allah”), in the Holy Quran. And I substantiated this recitation and further proven its credibility with examples from the Arabic language and quotations from linguists.

key words: reading _ informal_ relief _ follow _ facilitate

المُقَدّمَةُ

الحمدُ للهِ مُنزّلِ القرآنِ الكريمِ بلسانٍ عربيٍّ مُبينٍ، والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلى أَشْرفِ الأَنبياءِ والمُرسلينَ سيدِنا محمَّدٍ وعلى آلهِ وصحبهِ أجمعينَ، وبعدُ

فالقرآنُ الكريمُ كلامُ اللهِ المنزّلِ عَلى رسولِهِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بلسانٍ عربيٍّ مُبينٍ، لا يَأْتِيهُ الباطلُ من بين يَديهِ ولا مِنْ خَلْفِهِ، مُعْجِزٌ كُلُّهُ، مُعْجِزٌ في مَبانيهِ وَمعَانيهِ، مُعْجِزٌ فِي مُفْرَدَاتِهِ وتَرَاكِيبِهِ، ومِن صُوَرِ إِعْجَازِ الْقرآنِ الكَرِيم اشْتِمالُهُ على قِراءاتٍ مُتعدّدةٍ؛ جَاءَت على لُغاتِ قَبَائلَ عَرَبِيَّةٍ وهذه القراءاُت كلُّها سُنّةٌ عن الرَّسولِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، تَلقَّاهَا وَحْيًا من اللهِ جلَّ و عَلا، وقد تَصَدَّى لضَبْطِ هذه القراءاتِ والتَّدقيقِ في نقْلِهَا ورواياتِها صَفْوةٌ مِن العُلمَاءِ، وضَعُوا ضَوابطَ صَارمةً للقِرَاءةِ الصَّحيحةِ، هذه الضَّوابطُ هي: التَّواترُ بسَندٍ متصل، ومُوافقةُ العربيَّةِ ولو بوجْهٍ، ومُوافقةُ الرَّسْمِ العُثمانيّ[1]، وما اخْتلَّ فيه أَحَدُ هذه الشُّروطِ عَدُّوهُ شّاذًّا، ولِيسَ المُرَادُ بِقِرَاءةٍ (شاذّةٍ) أنَّها من عندِ القَارئِ، فهذا لَبْسٌ يقعُ فيه كثيرٌ من العامَّةِ، ومَردُّ ذلكَ – فيمَا يَظْهرُ لي – يعودُ لجَفْوَةٍ كَلِمَةِ (شَاذّة) فيحسَبُهَا الجاهِلُ مَوضُوعةً، وهذا فهْمٌ مَغْلُوطٌ لمرادِ الشُّذوذِ ومفهومِهِ في عِلْمِ القراءاتِ.

إنّ القراءةَ الشَّاذَّةَ هي تلك القراءةُ التي افتقدَت أحدَ شُروطِ القراءة المتواترةِ، فلا يَصحُّ التعبّدُ بها، ولكَّن افتقادَها أَحَدَ شُروطِ المتواترةِ لا يفقدُها قيمتَهَا اللُّغويَّةَ، ولا يخرجُهَا من قُدْسِيَّةِ القِراءةِ، ولا يَطعَنُ في صحَّتِهَا، يقولُ ابنُ جِنّي عن القراءةِ الشّاذّةِ: (وضَرْبٌ تعدَّى ذلك فَسمَّاهُ أهلُ زمانِنَا: شَاذًا، أي: خَارجًا عن قراءةِ القرّاءِ السَّبعةِ. . . **إلاَّ أنَّهُ مع خُروجِهِ عنهَا نَازِعٌ بالثِّقَةِ إلى قرَّائِهِ، مَحْفُوفٌ بالرِّوايَاتِ من أمامِهِ ومِن ورائِهِ، ولعلَّهُ أو كَثيراً منه مُسَاوٍ في الفَصَاحةِ للمُجْمَعِ عليه**)[2]

وقد تصدَّى لهذا الفهْمِ المغْلوطِ لمعنى (الشّذوذِ) كثيرٌ من الباحثينَ والمتخصصينَ كما إنَّ كثيرًا من العلماءِ المعنيينَ بهذا العلْمِ الشّريفِ قد صنَّفَ مصنفاتٍ خاصّةً بالقراءاتِ الشَّاذَّةِ إيمانًا منهم بأنَّها قراءةٌ، ولكنها افتقدَت أحدَ الشُّروطِ[3].

ومن هنا رأيتُ أن أقفَ على القراءاتِ غيرِ المتواترةِ التي وردَت في أوَّلِ آيةٍ من سورةِ الفاتِحةِ أُمِّ الكتابِ، وهي (الحَمْدُ للهِ) لمَا لهذه الآيةِ من مكانةٍ عظيمةٍ في قلْب كلِّ مسلمٍ؛ فهي على لسانِهِ نهارَهُ وليلَهُ في عباداتِهِ المفروضَةِ رُكْنًا لا تصحُّ الصِّلاةُ إلاَّ بها، وفي نَوافلِهِ المَسْنُونةِ، وفي أذْكَارِهِ المَنْدُوبَةِ، وفي أَورَادِهِ المعلُومَةِ، وفي منْشَطِهِ وَمكْرَهِهِ، وفي شَأْنِهِ كلِّهِ، من هنا رأيتُ أَنْ أشْرُفَ بالبحْثِ فيها وأَنْ أَقفَ على ما وردَ فيها من قراءاتٍ، وقد تتبّعتُ القراءاتِ الشّاذّةَ الواردةَ فيها ومَن قرأَ بهَا، ووقفتُ على آراءِ اللُّغويينَ في توجِيهِهَا، فالقراءاتُ الشاذّةُ الواردةُ في هذه الآيةِ الكريمةِ قراءتانِ شاذّتانِ هما قِرَاءَتا الإتباعِ الحَركيِّ بإتْباعِ اللَّاحقِ السَّابقَ وذلك بإتباعِ حركةِ أوَّلِ الكلمةِ الثانيةِ حركةَ آخرِ الكلمةِ السَّابقةِ أو بإتباعِ السَّابقِ اللَّاحقَ وذلك بإتباعِ حركةِ آخرِ الكلمةِ الأُوْلَى حَركةَ أوَّلِ الكلمةِ الثَّانيةِ، (الحَمْدُ لُلهِ) و (الحَمْدِ لِلَّهِ) قراءةٌ تُتْبِعُ حركةَ أوّلِ الكَلمةِ الثَّانيةِ (لامِ الجرّ) الحَرَكَةَ السَّابقةَ لها وهي (ضمَّةُ الدَّال)، والقراءةُ الأُخْرَى تُتْبِعُ (دالَ) الكلمةِ الأولى كَسْرَةَ (لامِ الجرِّ) في الكلمةِ اللَّاحقةِ، وهذه الظَّاهِرةُ تُسَمَّى عند اللُّغويينَ ظَاهِرةَ الإتْباعِ، وقد وقفتُ على تأصيل هاتين القراءتين لغويا إذ إنَّ مَن شَأْنِ العَرَبِ تَخْفيفَ ما يكثُر استخدامُهُ في كلامِهِم بإتْبَاعِ الحَرَكَةِ مُجَانِسِهَا تَخْفِيْفا، والقرآنُ الكَريمُ نزلَ بلسانٍ عربيٍّ مُبينٍ، فعندما تنزلُ قراءةٌ مُوافَقةً لظَاهرةٍ خاصَّةٍ ببعضِ القَبائلِ فإنَّ هذا شرَفٌ لا يُضَاهيهِ شَرَفٌ لتلك القَبيلةِ أَنْ نَزَلَ وَحْيِ السَّمَاءِ بمَا هو خاصٌّ بلُغَتِهِم، وقد نزلَت قراءاتٌ كَثيرةٌ بلُغاتِ بعضِ القَبائلِ العربيَّةِ تُخَالِفُ قِيَاسَ النَّحوِ البَصْرِيِّ، وقد اجتهدَ النَّحَاةُ في توجيهِ القراءاتِ وإن كانَ بعضُهم قد قَسَا على بعْضِ القرَّاءِ، إلاَّ أَن ما وردَ مِن قِرَاءةٍ _ حتَّى وإن لم يَجدْ لها النَّحْويُّ توجيها _ مُقَدَّمٌ على القِيَاسِ العَقْليِّ النَّحْويِّ الاسْتِقْرَائِيِّ، فاللِّسَانُ العربيُّ أكبرُ مِن أن يُحاطَ بهِ، يَقولُ الشَّافعيُّ رَحِمَهُ اللهُ : (لسانُ العربِ أوسعُ الأَلْسِنَةِ مذْهبًا، وأكثرُها ألفاظًا، ولا نعلمُهُ يُحِيطُ بجميعِ علْمِهِ إنسانٌ غيرُ نبيٍّ)[٤].

ورأيتُ أَنَّ هاتينِ القراءتينِ مُوافِقةٌ للغةِ بعضِ القبائلِ العربيَّةِ، فالإِتْبَاعُ واردٌ في كَلامِ العربِ بكثرةٍ، فالعربُ يَنفِرونَ من الثِّقلِ في الكَلامِ، و يَبحثونَ عن التَّخفيفِ، وسعيُهم للتخفيفِ يجعلُهم يغيّرونَ في بعضِ الحَرَكاَتِ، بل وفي بعضِ الحُروفِ بإبدالِها، وفي بعضِ التَّراكيبِ باخْتِزالِها، وكلَّما كثُر استخدامُهم للكلمَةِ كانَ تخفيفُهُم لها أَكْثَرَ، وهاتانِ الكلمتانِ في أَوَّلِ سُورةِ الفاتحةِ من أكثرِ الكلامِ جريانًا على ألسنتِهِم، فكانَت مظنَّةَ تغييرٍ وتخفيفٍ .

وحدودُ بحثي هاتانِ القراءتانِ في هاتينِ الكلمتينِ فقطْ، مع مَا وَرَدَ فيها من آراءِ العلماءِ وتوجيهِهِم؛ ولم أقفْ _ فيما أَعْلمُ _على عُنْوانٍ خَاصّ بدراسةٍ لغويَّةٍ للقراءاتِ الشَّاذّةِ في قولِهَ تَعَالَى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ وإن وُجِدَ فالتناولُ لاشكّ سيختلفُ، ولاشَكَّ أنَّ هناك أَبْحاثا تناولَت ظاهرَة الإتباعِ والتَّخفيفِ، وأبحاثا تناولتهما في القرآنِ الكريم كلِّهِ[٥].

ولهذا رأيتُ أن أشاركَ بهذه الوريقاتِ تشرفًا بخدمةِ كتابِ اللهِ العزيزِ، وأسأل الله التوفيق، وهو حسبي ونعم الوكيل.

ومَنْهَجِي سَيَكوُنُ اسْتِقْرَائياً وَصْفِيَّاً يَجْنَحُ إلى الإِيْجَازِ كثيرا .

استقر بحثي هذا على تمهيد وأربعة مطالب وخاتمة:

- **تمهيد:** تناولتُ فيه مفهومَ الإتباعِ وصورَه.
- **المطلبُ الأوَّلُ:** قراءةُ إتباعِ الثاني الأوَّلَ (الحَمْدُ لُلّه)
- **المطلبُ الثَّاني:** قراءةُ إتباعِ الأَوَّلِ الثَّانيَ (الَحْمدِ لِلّه)
- **المطلبُ الثَّالثُ:** العِلَّةُ العقليَّةُ للتَّخفيفِ (بإيجازٍ) .
- **المطلبُ الرَّابعُ:** موقفُ بعضِ النُّحاةِ من هاتينِ القراءتينِ.
- **الخَاتِمةُ.**

تمْهِيدٌ

الإتباعُ لغةً: هو التلوُّ والتقفِّي، يقولُ ابنُ فارسٍ: التّاءُ، والباء، والعينُ، أصلٌ واحدٌ لا يشذُّ عنه من الباب شيءٌ، وهو التُّلوُّ والقَفْوُ، يُقَالُ: تبِعتُ فلانًا إذا تلوتُه وأتّبعتُه إذا لحِقْتُهُ)[٦].

وفي الاصْطِلاحِ هو التَّغييرُ الَّذي يُصِيبُ الحَرْفَ وينتَّجُ من تجاورِ صوتينِ تجاورًا مباشرًا أو أَن يتغيَّرَ حرفٌ ليماثلَ حَرْفًا آخرَ له مباشرةً[٧].

ويعرفه المحدثون بأنَّهُ التعديلاتُ الكيفيَّةُ للصَّوتِ؛ بسببِ مجاورتِهِ لأصواتٍ أخْرَى أو تحوُّلُ الفُونِيْمَاتِ المختلفةِ إلىُ مماثلةٍ تَمَاثلا كليًا أو جزئيًا[٨].

ويرى الدُّكتورُ(تمَّامْ حسّانْ) أنَّ لجوءَ العربِ للإتباعِ يعودُ إلى كراهيتِهم التنافرَ وهو ما يسمُّونَهُ المناسبةَ، ويرى أنَّ النُّحاةَ قد لاحَظُوا أنَّ موقعًا معينًا ما قد يَتَطلَّبُ حركةٌ معينةً بحكْمِ النَّظامِ المعياريّ لهُم، ولكنَّ هذه الحركةَ المعياريَّةَ قد تتنافرُ مع مجاوراتِها أو لا تناسبُهُ، فيبدو السِّياقُ قد فَرَضَ مكانَ الحركةِ المعياريَّةِ حركةً مناسبةً مع ما يجاورُها[٩].

يقول ابنُ الإعرابي: (سألتُ العربَ أيّ شيءٍ معْنى: شَيطَانُ لَيطَانُ؟ فقالُوا : شيٌء نَتِدُ به كَلامَنا أي: نشدُّه)[١٠]. فيتضَّحُ من جوابِهم أنَّ لإتباعِ الكلمةِ الكلمةَ دواعيَ وأغراضًا، وأنَّه من سَنَنِ كَلامِ العربِ[١١].

صُوَرُ الإتبَاعِ:

جعلَ السُّيوطيُّ رحمه اللهُ البابَ الأَوَّلَ في كِتَابِهِ (الأَشْبَاهُ والنَّظَائِرُ) للإتباعِ الصوتيّ وذكر صورًا منه عند العَرَبِ، منها:

إتباعُ حركةِ آخرِ الكلمةِ المعربةِ لحركةِ أوَّلِ الكلمةِ بعدها نحوَ ﴿الحَمْدِ لِلّهِ﴾

ومنه: إتباعُ حركةِ أوَّلِ الكلمةِ لحركةِ آخرِ الكلمةِ نحو ﴿الحَمْدُ لُلّهِ﴾

ومنه: إتباعُ حركةِ الحرفِ الذي قبلَ آخرِ الاسمِ المُعْرَبِ لحركةِ الإعرابِ في الآخرِ في نحوِ (امرِئْ) فإنّ الراءَ تتبعُ الهمزةَ في حركتِها، نحَو: هذا امُرؤٌ، رأيت امرَأً، مررت بامرِئٍ.

ومنه: إتباعُ حركةِ الفاءِ اللَّامَ وذلك نحوَ (مَرِءٍ) و (فَمٍ) خاصَّةً فيقالُ: هذا مُرْءٌ وفُمٌ، رأيتُ مَرِءاً وفَماً، ونظرتٌ إلى مِرِءٍ وفِمٍ.

ومنه: إتباعُ حركةِ اللَّامِ للفاءِ في المُضَاعفِ من الُمضَارِعِ المجزومِ والأمرِ إذا لم يُفَكَّ الإدغامُ في بعضِ اللُّغاتِ نحوَ: عَضَّ ولم يَعَضَّ، وفِرَ ولم يَفِرَّ، ورُدّ ولم يَرُدّ.

ومنه: إتباعُ حركةِ العينِ للفاءِ في الجمْعِ بالألفِ والتَّاءِ حيثُ وجِدَ شرطُهُ، نحوَ: تمْرةٍ تَمَراتٍ، وسِدْرةٍ سِدِراتٍ وغُرْفةٍ غُرُفاتٍ.

ومنه: إتباعُ اللَّامِ للفاءِ في البِنَاءِ على الضَّمّ، نحوَ: مُنْذُ، ضُمَّتِ الذَّالُ إتباعًا للميمِ.

ومنه: إتباعُ حركةِ الفاءِ للعينِ في لُغَةِ مَن قال في (لَدُنْ) (لُدُ)

ومنه: إتباعُ حركةِ الميمِ لحركةِ الخَاءِ والتَّاءِ والغَينِ في قولِهم: مِنخِرٌ في: مَنخِرٍ و: مِنتِنٌ في: مُنتن، و: مِغِيرةٌ في: مُغِيرة. بل قعَّدوا لذلك ضابطًا وهو: كلُّ فعْلٍ على (فَعِل) بكسرِ العينِ وعينُهُ حرْفُ حلْقٍ يجوزُ فيه كسْرُ فائهِ إتباعًا لكسْرِ العينِ.

ومنه: إتباعُ حركةِ فاءِ كلمةٍ لحركةِ فاءٍ أخرى لكونِها قُرِنَت معها وسكونِ عينِ كلمةٍ لسُكونِ عينٍ أُخْرى أو حركتِها لحركتِها كذلك، تقول: ما سمعتُ له جَرْسا في الإفْرادِ فإذا قلتَ: ما سَمِعتُ له حِسًا ولا جِرْسًا؛ كسرتَ الجيمَ على الإتباعِ نحوَ: رِجْسٍ نِجْسٍ، فإذا أفردوا قالوا: نَجِسٌ.

ومنه: إتباعُ الكَلمةِ في التَّنوينِ لكلمةٍ أُخْرى منوَّنةٍ صحبتْها، كقوله تعالى: ﴿وجئتك من سَبأٍ بَنبأٍ يَقِينٍ﴾[١٢] وقولِهِ تعالى: ﴿إنَّا أَعْتَدْنَا للكَافِرِينَ سَلاسِلاً وأَغْلالاً وسَعِيرا﴾[١٣] في قراءة من نوَّنَ الجميعَ.

ومنه: إتباعُ كَلمةٍ لأُخْرى في فَكّ ماحَقُّهُ الإدغامَ، كحديثِ (أَيَّتُكُنَّ صَاحِبَةُ الجَمَلِ الأَدْبَبِ تنبَحُهَا كِلابُ الحَوأَبِ) قياسه: الأدَبّ؛ ففكّ إدغامَهُ إتباعًا للحَوأَبِ.

ومنه : إتباعُ كَلمةٍ في إبدالِ الواوِ فيها هَمْزَةً لهَمْزةٍ في أخرى، كحديثِ: (ارجعْنَ مَأْزُورَاتٍ غيَر مَأْجُوراتٍ) والأصلُ: مَوْزُورَات.

ومنه: إتباعُ كَلمةٍ في إبدالِ واوِهَا ياءً لياءٍ أخْرى، كحديثِ: (لا دَريتَ ولا تَليتَ) والأصلُ: لا تَلَوت.

ومنه: إتباعُ ضميرِ المذكَّرِ لضميرِ المؤنَّثِ كحديثِ مواقيتِ الحجِّ (هُنَّ لهُنَّ) أصلُهُ: لَهُم، أي: لأهلِ الميقاتِ.

ومنه : إتباعُ (اليزيدِ) ل (الوليدِ) في إدخالِ اللَّامِ عليهِ في نحوِ قولِ الشَّاعرِ:

رأيتُ الوليدَ بنَ اليزيدِ مُباركًا[١٤].

وقد أفْردَ بعضُ العلماءِ الإتباعَ بمصنَّفٍ مستقلٍّ، منهم:

أبو الطيِّبِ اللُّغويُّ ت: ٣٥١ بكتابه (الإتباعُ)

وابنُ فارسٍ ت: ٣٩٥ بكتابه (الإتباعُ والمُزاوجةُ)

والسِّيوطيُّ ت: ٩١١ بكتابه (الإلْمَاعُ في الإتباعُ) في كتابِهِ (المُزْهِر).

وقد خَصَّ بعضُ العلماءِ الإتباعَ ببابٍ مستقلٍّ في مُصنَّفِهِ، كما صنعَ أبو عُبيدٍ ت: ٢٢٤ في الغريبِ المصنَّف[١٥]، وأبو عليٍّ القَالي ت: ٣٥٦ في أماليه[١٦].

فالإتباعُ في كلامِ العربِ يَكادُ يكونُ هو الأصْلَ في كلامِهِم، يقوّل ابنُ إيازٍ: (اعلمْ أنَّ العربَ قد أكثرَت من الإتباعِ حتَّى صَارَ ذلك كأنَّهُ أصْلٌ يُقاسُ عَليهِ)[١٧]

مُوافقةُ القراءاتِ لبعضِ الظَّواهرِ اللُّغويَّةِ :

أُنزِلَ القرآنُ الكريمُ على سبعةِ أحرفٍ، عن ابنِ عبَّاسٍ رضي اللهُ عنهما عن النبيِّ ﷺ قال: (أقرأني جبريلُ على حرْفٍ فراجعتُه، فزادني فلم أزلْ أستزيدُهُ و يزيدُني حتَّى انتهى على سبعةِ أحرفٍ)[١٨] وقد اختلفَ العلماءُ في مَرادِ (الأَحْرفِ) الواردةِ في الحديثِ الشَّريفِ، وأَشْهَرُ الآراءِ وأظهرُها أنّ المرادَ بها هو اللغاتُ، يقولُ ابنُ قتيبةَ: (وإنَّما تأويلُ قولِهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أُنزلَ القرآنُ على سبعةِ أحرفٍ: على سبعةِ أوجُهٍ من اللُّغاتِ متفرقةً في القرآنِ)[١٩].

وهو مِن تيسيرِ اللهِ على عبادِهِ، يقولُ ابنُ قتيبةَ: (فكانَ من تيسيرِ اللهِ تعالى أنْ أَمَرَ نبيَّه ﷺ بأنَّه يُقْرِئُ كلَّ قومٍ بلغتِهم وما جرَت به عادتُهم، فالهذليُّ يقرأ: عَتَّى حِينٍ أي: (حَتَّى) لأنَّه هكذا يلفِظُ بها ويستعملُها، و الأسديُّ يقرأُ: تِعْلَمُونَ، وتِعْلَمُ، و: تِسْوّدُّ وجوهٌ، و(ألم إعْهَدْ إليكم) بكسرِ حرْفِ المُضَارَعةِ، والتميميُّ يَهْمِزُ، و القرشيُّ لا يَهْمِزُ)[٢٠].

ويقول : (ولو أنَّ كلَّ فَريقٍ من هَؤلاءِ أُمِرَ أنْ يزولَ عن لُغَتِهِ وما جَرَى عليهِ اعتيادُهُ طفلًا وناشِئا وكهلًا لاشتدَّ ذلك عليهِ، وعَظُمَت المِحْنةُ فيهِ، ولم يُمكنْهُ إلاَّ بعدَ رِيَاضَةٍ للنَفَسِ طويلةٍ و تذليلٍ للّسَانِ و قَطْعٍ للعَادَةِ، فأرادَ اللهُ أن يجعلَ له مُتَّسعًا في اللُّغاتِ و مُتَصَرَّفًا في الحركاتِ كتيسيرِهِ عليهم في الدِّينِ)[٢١]

فالقراءاتُ الشَّاذَّةَ تدخلُ في مُرادِ هذا الحديثِ الّشريفِ من أنَّ القرآنَ الكريمَ نزلَ على لغاتٍ كثيرةٍ من لغاتِ العربِ، وكانت كُلُّ قبيلةٍ تَقْرَأُ في أَمْصَارِها بِلُغَتِهَا حتَّى عَهْدِ الخليفَةِ الثَّالِثِ عثمانَ بنِ عفَّان رضي اللهُ عنه الَّذي أَمَرَ بتوحيدِ المَصَاحِفِ في مُصْحفٍ واحدٍ وأَمرَ بإحرَاقِ كلّ ماخَالَفَ المصحفَ الموحَّدَ، وتَرَتَّبَ على ذلك تَرْكُ كثيرٍ من القراءاتِ الصَّحيحةِ التي لا يحتملُها الرَّسمُ العثمانيُّ إيثارًا للعافيةِ ووحدةِ[٢٢]

إنَّ موافقةَ بعضٍ القراءاتِ للغاتِ بعضِ القبائلِ مُتحقِّقٌ حتَّى في القراءاتِ المتواترةَ، فقد وردت قراءاتٌ سبعيّةٌ يتعبَد بها مُرَاعيةً غايةَ العربِ في سعيهم للتخفيفِ كقراءةِ (إنَّ هَذانِ لسَاحِرانِ)[٢٣] بتشديد نون (إنّ) ولزومِ المثنَّى (هذانِ) الألفَ، وهذه القراءةُ تدخلُ في التَّخفيفِ بالإتباعِ، فإتباعُ (الألفِ) فتحةَ (الذَّالِ) أخفُّ على اللّسَانِ من الانتقالِ من فتحةِ (الذال) إلى (اليَاءِ) وهذه لغةُ قبيلةِ بَلْحَارثِ بنِ كعبٍ فهم يُلزمونَ المثنَّى مُطْلَقًا[٢٤]، ومَا أرى ذلك إلاَّ تخفيفًا؛ إذ التخفيفُ بغية العربِ في كلامِهم، وما ورودُهُ في بعضِ القراءاتِ إلاَّ تأكيدٌ على أنَّ القرآنَ الكريمَ نَزَلَ مراعيًا مَنْشَد العربِ، ومشرّفًا بعضَ القبائلِ العربيَّةِ بمجيئِهِ على لغتِهم.

والعَدَدُ (سَبعةٌ) الواردةُ في الحديثِ الشَّريفِ ليس المرادُ به السَّبعةَ كعددٍ مُحَدَّدٍ، وإنما المرادُ به التكثيرُ؛ لأنَّ العربَ إذا أرادَت أن تكثِّرَ الشَّيءَ قالَت: سبعةٌ أو سبعونَ أو سبعُمائةٍ. قال تعَالى:﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾[٢٥].

يقولُ ابنُ كثيرٍ: (وقد قِيلَ إنَّ السَّبعينَ إنَّمَا ذُكرَت حسمًا لمادَّةِ الاستغفارِ؛ لأنَّ العربَ في أساليبِ كلامِهِم تذكرُ السَّبعينَ في مُبالَغةِ كَلامِهَا، ولا تريدُ التَّحديدَ بِهَا)[٢٦]

و يقولُ ابنُ منظورٍ: (وقد تكرَّرَ ذِكْرُ السَّبْعةِ والسَّبْعِ والسَّبعينَ والسَّبْعِمائةِ في القرآنِ وفي الحديثِ، والعربُ تضعُهَا موضعَ التَّضعيفِ والتَّكثيرِ)[٢٧]

ويَحْسُنُ التعريجُ على أمْرٍ يُلبسُ على كثيرٍ من العامَّةِ في مرادِ السَّبعةِ الوَارِدَةَ في الحديثِ بأنَّها السَّبْعُ القراءاتِ للقرَّاءَ السَّبعَةِ وهذا خطأ جسيم، فما حصْرُ القراءاتِ في سَبْعٍ أو عَشْرٍ إلاَّ مُتَأَخِرٌ جَاءَ بِهِ ابنُ مُجاهدٍ المتوفَّى سنة ٣٢٤ هـ رحمه الله فهو من سَبَّعَ السَّبْعَةَ وصنعَ كتابَهُ (السَّبْعَةُ في القراءاتِ) لقراءٍ تخيّرهُم بضوابطَ وشروطٍ، ولا علاقةَ مطلقًا بين اختيارِ ابنِ مُجاهدٍ سبعَة القرَّاءِ وبين الحديثِ النَّبويَّ الشَّريفِ، يقولُ سعيدٌ الأفغانيُّ: (بل نقدُوهُ – يعني ابنَ مجاهدٍ– لاختيارِهِ سبعةً لا أقلُّ ولا أكثرُ، فدخلَ بذلك على العوامِّ وأشباهِهِم وهَمٌ بأنَّ هذه القراءاتِ لهؤلاءِ السبعةِ هي المقصودةُ بالحديثِ الشَّريفِ)[٢٨]

المطلب الأوَّل ـ قراءةُ (الحَمْدُ لُله)

يقولُ ابنُ جني[٢٩]: " قِراءةُ أَهْلِ البَادِيةِ (الحمدُ لُلّه) مَضْمُومةَ الدَّالِ واللَّامِ، رواها لي بعضُ أَصْحابِنا قراءةً لإبراهيمَ بن أَبي عَبْلَةَ. "

ويقولُ الفرّاءُ: (و منهم من يقولُ: الحَمْدُ لُلّهِ، فيرفعُ الدَّالَ واللَّامَ)[٣٠]

ويقولُ ابنُ عطيَةَ: (وُروِيَ عن ابنِ أَبي عبْلةَ: الحَمْدُ لُلّهِ، بضمّ الدَّالِ واللَّامِ، على إتباعِ الثاني الأوَّلَ)[٣١]

ويقولُ العُكبريُّ : (و يُقرأُ بضمّ الدَّالِ واللَّامِ على إتْبَاعِ اللَّامِ الدَّالَ)[٣٢]

ويقولُ أبو حيّانَ : (و أَتْبعَ إبراهيمُ بنُ أبي عِبلةَ لامَ الجرّ لِضمَّةِ الَّدال)[٣٣]

فهؤلاءِ العُلمَاءُ وغيرُهم نَقلُوا قِراءةَ إِتْبَاعِ الثَّاني الأوَّلَ، وذلكَ بِإِتْبَاعِ حَركةِ لامِ الجرّ حركةَ الدَّالِ السَّابقةَ ؛ فتضمُّ اللَّامُ إتباعًا لهَا، وهي قِراءةٌ شَاذَّةٌ لإبراهيمَ بنِ أبي عبلةَ وهو ثِقةٌ من بقايا التَّابعينَ، إمامٌ قدوةٌ كما وصَفَهُ الَّذهبيُّ[٣٤].

فهي قِرَاءَةٌ مَنسوبةٌ لتابعيٍّ ثقةٍ، لا ينبغي لأحدٍ أن يطْعنَ فيها أو في راويها لكونِها خالفَت شروطَ القراءةِ المتواترةِ، وقد بيّنَ ابنُ جنّي أنَّ هذه القراءةَ شَاذّةً في القياسِ والاستعمالِ، ويُعلِّلُ وروَدها بأنَّ اللَّفظَ كثُر في كلامِهم وشَاعَ في استعمالِهم، والعربُ لمَا كثُر في استعمالِهم أشُّد تغييرًا[٣٥].

إنَّ إتباع الثَّاني الأوَّلَ في الحركةِ هوَ لُغَةُ بعضِ القبائلِ العربيَّةِ الفصيحة فالإتباعُ لغةُ بعضِ بني ربيعةَ، و بعضِ قيسٍ[٣٦]، ومُرادُ ابنِ جنّي بـ(قراءةِ أَهلِ البَادية) يَقْصِدُ العَربَ ساكني الباديةِ الخلَصَ الذين ينطقون الكلاَم على سَجِيَتِهِم .

يقولُ الرضيُّ: (وإنَّمَا ضمُّوا ذلك لكراهيةِ الانتقالِ من الكسرةِ إلى الضّمّةِ وبينهُمَا حرْفُ ساكنٌ. . . . وكذا قالُوا في: أُنْبِئُك، وهُوَ مُنْحَدِرٌ من الجبل: أُنْبُؤُك، ومُنْحَدُرٌ)[٣٧]

و إتباع حركة الثَّاني الأَوَّلَ أفضلُ من إتباعِ الأَوَّلِ الثَّانيَ؛ لأنَّ الأصلَ أنْ يكونَ اللَّاحقُ تابعًا للسَّابقِ، كأنَّ الأوَّلَ هو المسبِّبُ لضَّمِّ التَّالي ؛ فيكونُ المسبِّبُ مقدَّماً، ولعلةٍ أخرى فُضِّل وهي أنَّ الضَّمَّ حركةُ إعْرابٍ والكسرَ في (لام الجرِّ) حركةُ بناءٍ؛ فإتباعُ حركةِ البناءِ حركةَ الإعرابِ أقوى؛ لأنَّ حركةَ الإعرابِ وُضعت لمعانٍ و دلالاتٍ مقصودةٍ يتميَّزُ بها بعضُها عن بعضٍ، فتغييرُها والإخلالُ بها يترتّبُ عليه التباسُ المعاني(٣٨).

وممَّا يرجّحُ تفضيلَ إتباعِ الثاني الأولَ في كلامِ العربِ كثرةُ بابِ (عُنُقٍ) و (طُنُبٍ) فقد كثُر عند العربِ بابُ (فُعُلٍ) وقلّ بابُ (فِعِلٍ) نحو (إبِلٍ) و (إطِلٍ) مع أنَّ الضّمةَ أثقلُ من الكسرةِ، وعلّل ابنُ جنّي ذلك؛ بأنَّ الضّمةَ أقوى من الكسرةِ، وقد يُحتملُ للقوةِ ما لا يَحتملُ للّضعفِ(٣٩)

وممّا وَرَدَ مِن إتبَاعِ اللَّاحقِ السَّابقَ في القِرَاءاتِ: قراءةُ أهلِ مكَّةَ (مُرُدِّفينَ)(٤٠) يقولُ القرطبيُّ: (وضُمّتِ الرَّاءُ إتباعًا لضمَّةِ المِيمِ)(٤١).

المَطلبُ الثاني ـ قَرَاءةُ (الحَمْدِ لله)

قرأَ الحسنُ البصْرِيُّ و زيْد بنُ علِيٍّ (الْحَمْدِ لِلّهِ) بإتباعِ الأوَّلِ الثانيَ، فكُسِرَت (دالُ) (الحَمْدِ) إتْبَاعًا (للامِ الجَرِّ)

يقولُ ابنُ جنّي (الْحَمْدِ لِلّهِ، مكسورتانِ، ورواهَا أَيضًا لي قِرَاءةً لزيدِ بنِ عليٍّ رضي اللهُ عنهما، والحسنُ البصْريُّ رَحِمَهُ اللهُ)[٤٢].

ويقولُ النَّحَّاسُ (روى إسماعيلُ بنُ عيَّاشٍ عن رزيقٍ عن الحسنِ أنَّهُ قَرَأَ: الْحَمْدِ لِلّهِ. . . و الكسرُ لغةُ تميمٍ)[٤٣].

ويقولُ أبو حيَّانَ: (كمَا أتبعَ الحسنُ و زيدُ بنُ عليٍّ كسرةَ الدَّالِ لكسرةِ اللَّامِ وهي أَغْرَبُ؛ لأنَّ فيها إتباعَ حركةِ مُعْربٍ لحركةِ غيرِ إعْرابٍ)[٤٤].

وقد ورد إتباع الكسرة للكسرة في الدرج تخفيفًا في قراءة (في بيوت أُمّهاتكم)[٤٥].

يقول أبو حيان: (و زاد حمزة في هذه كسر الميم إتباعًا لكسرة الهمزة) [٤٦].

ويقول ابن عطية: (وقرأ طلحة بن مصرف إمِّهاتكم بكسر الهمزة)[٤٧] ومن صور التخفيف أيضا قراءة (إنها لحْدَى الكُبَر)[٤٨].

يقول القرطبي: (وروى جرير بن حازم عن ابن كثير: إنها لَحْدَى الكُبر[٤٩]، بحذف الهمزة)[٥٠]

وفي هذه القراءة يقول المالقي: (كما قرأ بعضهم: إنها لَحْدَى الكُبر، فأسقط الهمزة تخفيفًا)[٥١]

ومن صور التخفيف أيضا قول بعضهم في قوله تعالى: ﴿لكنّا هو الله ربي﴾[٥٢] أنّ الأصل فيها: (لكنْ أنا) ثم نقلت فتحة الهمزة (أَنَا) إلى (النون) قبلها فصار لكننّا، فأدغم تخفيفًا[٥٣]

ومن صُورِ الإتباعِ تخفيفًا أيضًا قِراءةُ حَمزةَ و الكسائيّ: (فَلإِمِّهِ) بكسرِ (الهمْزةِ) في قولِهِ تعَالَى ﴿فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾[٥٤]، و كذلك كسْرُ الهمزةِ من قولِهِ تَعالَى ﴿فِي بُطُونِ إِمَّهَاتِكُم﴾[٥٥] إتباعًا لكسرةِ نونِ (بُطُونِ) و كسْرِ الهَمْزةِ في (إِمّهَا)[٥٦] و في ﴿إِمِّ الْكِتَابِ﴾[٥٧]، يقولُ ابنُ عَطِيَّةَ (وهذا كلُّه إذا وُصِلَا إتباعًا للكسْرةِ أو اليَاءِ الَّتي قبلَ الهمزةِ)[٥٨]

و إتباعُ الأوَّلِ الثَّانيَ، أي: إتباعُ الدَّالِ اللَّامَ هي لُغَةُ تميمٍ وبعضِ غَطَفَانَ، وغايتُهم من ذلك هو التَّجَانُسُ[٥٩]

ومنه قولُ امرئِ القَيسِ[٦٠]:

وَيْلِّمِّهَا في هَوَاءِ الجَوِّ طَالِبَةً وَلَا كَهَذَا الَّذِي فِي الأَرْضِ مَطْلُوبُ

يقولُ القُرطبيُّ (الأصلُ : وَيْلٌ لأُمِّهَا، فحُذِفَت اللَّامُ الأُولَى واستُثْقِلَ ضَمُّ الهمزةِ بعَد الكسرةِ فنقلَها للأُمِّ ثمَّ أَتْبَعَ اللَّامَ الميمَ، و رُوِيَ عن الحسَنِ بنِ أَبي الحَسَنِ و زيدِ بنِ عَليٍّ: الْحَمْدِ لِلّهِ، بكْسرِ الدَّالِ على إتباعِ الأوَّلِ)[٦١].

ويقولُ الأَعْلَمُ في أثناءِ تناولِهِ البيتَ السَّابقَ: كَسَرَ الميمَ ثمَّ كَسَرَ اللَّامَ إتباعًا لكسْرةِ الميمِ)[٦٢].

المطلب الثالث ـ التّعليلُ العقليُ عند اللُغويينَ للإتباع في هاتينِ القراءتينِ:

يُعلّلُ اللغويونَ لإتْبَاعَ الضَّمَّةِ الضَّمّةَ بأنَّ الضَّمَّةَ مع الضَّمَّةِ أخفُّ على الّلسانِ من الانتقالِ من الضّمَّةِ إلى الكسرةِ، وإتباعُ الضّمةِ الضّمةَ فيه تجانسٌ صوتيٌّ، وبخاصَّةٍ فيمَا كثُر في كلامهِم، وقد وَرَدَ مثلُ هذا في كلامِ العربِ، فمن ذلك قولُ الشَّاعرِ[٦٣]:

وَقَالَ اضربْ السَّاقينِ أمِّك هَابِلُ بكسرِ (الهمزةِ والميمِ) في (أمّك) إتباعًا للنُّونِ السّابقَةِ في (السَّاقينِ) يقوُل الرَّضيُّ عن شَطْرِ البيتِ: (بكسرِ ضمّ الهمزةِ إتباعًا لكسِر نون السَّاقينِ)[٦٤] و يقولُ السُّيوطيُّ عنه أيضا: (ومثلُ هذا في إتباعِ الإعْرابِ البناءَ كسرُ الميمِ لكسرةِ الهمزةِ) ولعلَّهُ يقصدُ كسرَ الميمِ والهمزةِ إتباعًا للنُّونِ[٦٥]

ويتضّحُ ذلك في قولِ سيبويهِ: (واعلمْ أنَّ الألفَ الموصولةَ فيما ذَكَرنَا في الابتداءِ مكسورةً أبدًا، إلا أنْ يكونَ الحرفُ الثَّالثُ مَضْمُومًا فتضمَّها، و ذلك قولُك: اُقتُل، اُستّضُعف، اُحتُقُر، اُحْرُنجُم، وذلك أَنك قرّبتَ الألفَ من المضمومِ إذ لم يكن بينهما إلَّا ساكنٌ، فكرهوا كسرةً بعدها ضَمَّةٌ، وأرادوا أن يكونَ العملُ من وجهٍ واحدٍ)[٦٦].

فسيبويهِ رحمه اللهُ يَرَى أنَّ قولَ بعضِ العربِ في: اُقتُل واُستُضعف بضمّ الأوَّلِ إتباعاً للثَّالثِ – لأنَّ الثانيَ ساكنٌ – يعودُ لكراهتِهم كسرةً بعدها ضمَّةٌ، ثم جعلَ يبيّنُ ذلك، فقالَ ". وكذلك أَرادُوا أنْ يكونَ العملُ من وجْهٍ واحدٍ، ودعاهُم ذلك إلى أنْ قَالُوا: أَنَا أجُوءُك و أُنْبُؤُك، وهو مُنْحَدُرٌ من الجبل"[٦٧] فمرادُهُ بقولِهِ: أَرادُوا أنْ يكونَ العملُ من وجْهٍ واحدٍ، أي: أن يكونَ اللَّفظُ و الصَّوتُ من مخْرجٍ واحدٍ ؛ بحثًا عن التَّخفيفِ، فإتباعُ الضّمّةِ الضّمّةَ أخفُّ على الّلسانِ من الانتقالِ من مخرجِ الضّمّةِ إلى مخْرجِ الكسرةِ و كذلك العكسُ.

أمّا إتْباعُ السَّابقِ اللَّاحقَ فيعلّلُ له النَّحَّاسُ بأنَّ هذه اللَّفظةَ (الحَمْد للهِ) تكثُر في كلامِ النَّاسِ، و الضمُّ ثقيلٌ، وبخاصَّةٍ إذا جاءَ بعدَ الضَّمّ كسرٌ، ففيه إرهاقٌ على اللّسَانِ،

فمَا كانَ منهم إلاَّ أنْ أَبدلوا من ضمَّةِ الدَّالِ كسْرةً ؛ لتُجَانِسَ كسرةَ لامِ الجرِّ، وجعلُوهَا بمنزلةِ كلمةٍ واحدةٍ، ويرى أنَّ الكسرةَ تكونُ مع الكسْرَةِ أخفَّ [٦٨] .

وعلّل ابنُ جنّي لظاهرةِ الإتباعِ الحرَكِيّ في (الْحَمْدُ للهِ) بأنّ اللفظ إذا كَثُرَ استعمالُهُ في كَلامِهِم وشَاعَ، فإنَّهُ يصبحُ هو المُسْتعملَ، يقولُ: (إنَّ من وراء ذلك ما أذكرُهُ لكَ، وهو أنَّ اللَّفظَ كثُر في كلامِهِم، و شاعِ استعمالُه، وهم لِمَا كثُر في استعمالِهم أشدُّ تغييرًا كمَا جاءَ عنهُم لذلك: لَمْ يَكُ، وَ: لاَ أَدْرِ، وَ : لَمْ أُبَلْ، و: أَيْشٍ تَقُولُ، و : جَا، يَجِي، و: سَا، يَسُو، بحذفِ همزتيهما، فلمَّا اطَّردَ هذا و نحوُهُ لكثرةِ استعمالِهِ أَتْبَعُوا أحدَ الصَّوتينِ الآخَرَ، وشبَّهُوهُمَا بالجزءِ الواحدِ و إن كانا جملةً واحدةً من مبتدأٍ وخبرٍ)[٦٩]، و يسّميهُ في (الخَصَائصِ) بمهاجمةِ الحركةِ على الحركةِ مِنْ غيرِ قياسٍ، و استشهد ببيتِ (الكتاب) وقَالَ: (اضْرِبِ السَّاقينِ إمّكَ هَابِلٌ) و أصلُهُ: أُمُّك هَابِلٌ، إلا أن همزة (أمّك) كُسِرَت لانكسارِ ما قبلَها على حَدِّ قِراءةِ ﴿فَلِأُمِّهِ صح﴾[٧٠] فصَارَ: إمُّك هَابِلٌ، ثم اتْبَعَ الكَسْرَ الكَسْرَ، فهجَمَت كْسرةُ الإتباعِ على ضَمَّةِ الإعْرابِ فابْتَزتْهَا موضعَها، فهذا شاذٌّ لا يُقاسُ عليه[٧١]، ويسمّيهِ (تقريبًا) أي: تقريبَ الحركةِ من الحركةِ تخفيفًا، يقول عند حديثِهِ عن الإدغامِ الأَصْغرِ: إنَّ الإدْغَامَ المعتادَ ما هو إلَّا تقريبُ صَوتٍ من صَوتٍ، و يقسّمهُ في الكلامِ قسمينِ: أحدِهما: أن يلتقيَ المِثْلان على الأحكامِ الَّتي يكونُ عنها الإدغامُ ؛ فيُدغمَ الأوَّلُ في الآخَرِ، ثمَّ جعَل يبيّنُ أنَّ المعنى الجامِعَ لكلّ صُورِ الإدغامِ القياسيّ و السَّماعيّ هو تقريبُ الصَّوتِ من الصَّوتِ وَأَوْرَدَ صُوَرًا للإدغامِ الأَصْغَرِ بعد أَنْ قَرَّرَ ضَابِطَهُ بأنَّهُ تقريبُ الحرْفِ من الحرْفِ و إدْنَاؤُهُ منهُ مِن غيرِ إدْغَامٍ، وهو عنَده ضُرُوبٌ، جَعَلَ منهُ الإمَالَةَ وهي عندَه إنَّما وقعَت لتقريبِ الصَّوتِ من الَّصوتِ، و منهُ أي: من التَّقْريبِ أن تَقَعَ (فاءُ) افْتَعَلَ (صَادًا) أو (ضَادًا) أو (طَاءً) أو (ظَاءً) فتُقلبُ لهَا تَاؤُهُ (طَاءً) نحوَ: اصْطَبِرَ، و: اضْطَرَبِ، ومِنْ ذلك تقريبُ الصَّوتِ مع الصَّوتِ مع حُروفِ الحَلْقِ، نحوَ: شِعِير و: بِعِي، و: رغِيف، ومِنْ ذلك التَّقريبِ قولُهُم: الْحَمْدُ لُلّهِ، و الْحَمْدِ لِلّهِ[٧٢].

ويرى كذلك أنَّ إيثارَهم قرْبَ الصَّوتِ من الصَّوتِ دعَاهُم إلى الإخْلالِ بالإعْرابِ، فقالَ بعضُهُم:

وقَالَ اضرِب السَّاقَينِ إمِّك هَابِلُ

وهذا نحوٌ مِن :الحَمْدُ لُلّهِ و الحَمْدِ لِلّهِ

ثم ختمَ بأنَّ جميعَ ما هذه حالُهُ ممّا قَرُبَ فيه الصَّوتُ من الصَّوتِ جَارٍ مُجرى الإدغامِ بما ذكرناه من التَّقريبِ.

ويرى الرَّضيُّ أنَّ كسرَ همزةِ (إمِّك) جَاءَ إتباعًا لكسرِ (نونِ) السَّاقينِ؛ ويعلَّلُ لذلك بكراهيةِ الانتقالِ من الكسْرةِ إلى الضَّمَّةِ[٧٣] و يدلّلُ على إتباعِ الأوَّلِ الثَّاني في: (أُنْبُؤُك) ومثلُهُ قولُهُ تعَالَى في قراءةِ (فِي إمِّهَا) بكسرِ همزةِ (إمِّ) و كذلكَ قولُهم: (ويْلِمِّها) أصلُهُ: وَيْ لأمِّها، حُذِفتِ الهمزةُ بعد إتباعِ حركتِهَا حركةَ اللَّامِ[٧٤].

وهذا كله يكون في سياق التخفيف في الكلام بالإتباع.

ويَرَى ابنُ الشَّجَريّ أنّ مِن شأْنِ العربِ أن تَحْمِلَ الشَّيءَ على الشَّيءِ مع حصُولِ أَدْنَى تناسُبٍ بينَهُمَا، حتَّى إنَّهم قد حَمَلُوا أَشْيَاءَ على نقائِضِها، واستشهدَ على حمْلِ الشَّيءِ على الشَّيءِ بإتباعِ حركَةِ الإعْرابِ حركةَ البِنَاءِ في قراءةِ (الحمدُ لُله) بضمَّ اللَّامِ[٧٥].

ويعلّلُ ابنُ يعيشَ لإتباعِ الكسرِ الكسْرَ و الضَّمّ الضَّمَّ في القراءتينِ بأنَّ الخروجَ من الشَّيءِ إلى مثلِهِ أخفُّ من الخروجِ إلى مَا يخالِفُهُ، وعليه قراءةُ زيدِ بنِ عليٍّ و الحسنِ و رُؤْبَةَ[٧٦].

ويعلّلُ ابنُ هشامٍ لهذه القِرَاءةِ بأنَّ إتباعَ الضَّمّ الضَّمَّ و الكسْرِ الكسْرَ عَارِضٌ للإتباعِ[٧٧].

تعْلِيلُ مَجِيءِ الإِتبَاعِ في كلمتينِ:

الأصلُ في الإِتْبَاعِ أن يكونَ في كلمةٍ، كما أوردَ سيبويهِ في أمثلتِه : أُقتُل، أجُوءُك وأمّا في هذه الصُّورة: (الحمدُ لُلّه) فإنَّ الإتباعَ وردَ في كلمتينِ، ويعلِّلون لذلك بأنَّ كثرةَ استعمالِ هاتينِ الكَلِمَتينِ مقترنتينِ مُتلازمتينِ جعلَهُمَا كالكلمَةِ الواحدةِ، يقوُل الزَّمخشريُّ: (والذي جسَّرَهُمَا على ذلك والإتباعُ إنَّما يكونُ في كلمةٍ واحدةٍ كقولهم: مُنحدُرُ الجَبَلِ، و مُغُيرَةُ تَنَزُّلُ الكلمتينِ منزلةَ كلمةٍ واحدةٍ لكثرةِ استعمالِهِمَا مقترنتينِ)[٧٨]

ويقول العُكْبريُّ: (و يُقرأ بضمِّ الدَّالِ و اللَّامِ على إتباعِ اللَّامِ الدَّالِ وهو ضعيفٌ أيضًا، ولا نظيرَ لهُ في حروفِ الجرَّ المفردةِ، إلّا أنَّ مَن قَرَأَ بِهِ فرَّ من الخروجِ من الضَّمِّ إلى الكسْرِ، وأَجْرَاهُ مُجْرَى المتَّصلِ؛ لأنَّهُ لا يكادُ يُستعملُ الحمدُ مُنفردًا عمَّا بعدَهُ)[٧٩].

ويقولُ النَّحَّاسُ (وجعلوهَا بمنزلةِ كَلِمةٍ واحِدةٍ) أي: أنَّهم نزَّلُوا (الحَمْد للهِ) منزلةَ كلمةٍ واحدةٍ لكثرةِ اسْتِخْدَامِهَا على أَلْسِنَةِ النَّاسِ وسَعَةِ انتشارِهَا[٨٠].

المطلبُ الرَّابعُ - موقفُ بعضِ النُّحاةِ من هاتينِ القراءتينِ

يقولُ النَّحَّاسُ عن هاتينِ القِرَاءَتينِ: "وسمعتُ عليَّ بن سليمان _ يَقْصِدُ الأَخْفَشَ الأَصْغَرَ _ يقولُ: لا يجوزُ من هذا شيْء عند البصْريينَ"[٨١].

ويقولُ الزَّجَّاجُ: وهذه لُغَةُ مَنْ لا يُلْتَفَتُ إِليهِ وَلاَ يُتَشَاغلُ بالرِّوَايَةِ عنهُ، وَإِنَّمَا تَشَاغَلْنَا نحن بِرِوَايَةِ هذا الحَرْفِ لِنُحذِّرَ النَّاسَ من أن يستعمِلُوهُ، أو يظنَّ جاهلٌ أَنَّهُ يجوزُ في كتاب الله عَزَّ وجَلَّ، أو في كَلامٍ وَلَمْ يَأتِ لهذا نَظِيرٌ في كَلامِ العَرَبِ"[٨٢].

فهذه جرأةٌ على قراءاتٍ نقلَها ثقاتٌ، ولا أَرَى الزَّجَّاجَ في مَوقفِهِ هذا إلاَّ متجاوِزًا ومتطاولًا غَفَرَ اللهُ لنَا وَلَهُ.

وهؤلاءِ المتطاولونَ على القراءاتِ الشَّاذَّة، بل إنّ بعضَ النُّحاةِ يتطاولُ على بعضِ القراءاتِ المتواترةِ إنَّمَا يَتغَافلونَ عن أنَّ القِراءةَ –و إن كانت شاذَّةً – فإنَّها قد

رويَت عن ثقاتٍ عُدولٍ فلا وجهَ لإنكارِهَا والتَّشنيعِ بهَا و وَصْمِ صاحبِها بالجَهْلِ وعَدَمِ المعرفةِ بكلامِ العربِ.

إنَّ اتِّهامَ القُرَّاءِ وتجهيلَهُم والتحذيَر منهم مَرْفُوضٌ لا يقبلُهُ به مسلمٌ، ويُخْشَى على صاحبِهِ من الوقوعِ في محذورٍ شرْعيٍّ، و إن تَعْجبْ فعَجَبٌ قولُ الزَّجَّاجِ إنّ الإتباعَ ليس له نظيرٌ في كلامِ العربِ، والشَّواهدُ تردُّ عليه من كلامِ العربِ و أقوالِ أئمَّةِ اللّغَةِ وعلى رأسِهم إمامُ النُّحَاة سيبويهِ، ولكنَّ الصَّنعَةَ العقليَّةَ _ فيما أَعْتَقِدُ _ طَغَت عَلى بعضِ النُّحاةِ فَأَخَذتْهم بعيدًا؛ حتّى إنَّهُ يكادُ يغيبُ عن ذهنِهِ أنَّ القارئَ مَا هو إلا نَاقلٌ و ما هو بوَاضِعٍ

وقد ردّ ابنُ المنيرِ على مْن يفضِّلُ قراءةَ ابنِ أبي عبلةَ لكونها أخفَّ وهو يقصدُ الزمخشريَّ فقالَ: (قيلَ فيه جَسَارةٌ لإشعارِهِ بأنَّ قراءتَهُما نشأَت عن متابعةِ أحكامِ اللُّغةِ بلا رِوايةَ، و السَّلفُ مُبرَّؤُونَ ؛ فإنَّ قراءاتَهم مأخوذةٌ بخصوصياتِها عن رواياتٍ وصلَت إليهِم)[٨٣] ويقولُ الدُّكتوُر عبدُالخالقِ عُضَيْمَةُ: (فالقراءاتُ الشَّاذَّةُ التي فقدَت شرطَ التَّواترِ لا تقلُّ شأْنًا عن أوثقِ ما نُقلَ إلينَا من أَلْفاظِ اللُّغَةِ و أساليبِها، وقد أجمعَ العلماءُ على أنَّ نقْلَ اللُّغةِ يُكْتَفَى فيهِ بروايةِ الآحَادِ)[٨٤] و قد أفردَ رحمه اللهُ في سِفْرِهِ العظيمِ (دراساتٌ لأسلوبِ القرآنِ الكَرِيمِ) جزءًا كبيرًا من القسمِ الأوَّلِ لهذه الظاهرةِ ظاهرةِ تجاوزِ بعضِ النُّحاةِ على بعضِ القرَّاءِ و القراءاتِ بِعُنوانِ (تَلْحِينُ القرَّاءِ) يقولُ رحمه الله: (إنَّ كُتبَ النَّحوِ واللُّغةِ والتَّفسيرِ وغيرَها قد تضمَّنَت نصوصًا كثيرةً في الطَّعنِ على الأئمةِ القرَّاءِ الذين تواترَت قراءاتُهُم في السَّبعِ والَّذينَ ارتضَتِ الأمَّةُ الإسلاميَّةُ قراءاتِهم فركَنُوا إليهَا، وَعَوَّلُوا عَليهَا) و أزعمُ أنّهُ لم يُسبقْ إلى مثلِ هذا العملِ المُبَارَكِ، فقد رصَدَ و تتبّعَ وأَحصَى على كلِّ نحْويٍّ تجاوزَهُ على قارئٍ أو قراءةٍ، ونافحَ منافحةَ العالِمِ المنصفِ الغَيورِ.

النتائج :

وبعد، أَخْلصُ ممّا وقفت عليه في هذا البحث بالآتي:

- أنَّ (الحمد لله) فيها قِراءَتَانِ شاذّتانِ كانتا محلَّ اهتمامِ العلماءِ لما لهذ الآيةِ من مكانةٍ عظيمةٍ لدى كلِّ مسلمٍ .
- أنَّ إتباع الضَّمِّ الضَّمَّ مُقَدَّمٌ لأمرين : هما أنَّ اللَّاحقَ ينبغي أَن يكونَ تّابِعًا السابق، والثَّاني أنَّ الضمَّ حركةُ إعرابٍ فهي أولى بالبقاءِ لارتباطِ المعنَى بهَا.
- أنَّ حُجَّةَ من كسَرَ الأولَ إلحاقًا للتَّالي هي أنَّ إتباعَ الكسرِ الكسرَ أخفّ على الِّلسانِ.
- أنَّ مسوّغ تَجْوِيزِ الإتباعِ في كلمتينِ بخلافِ الأصلِ الّذي يَشترطُ أن يكونَ في كلمةٍ واحدةٍ عائدٌ لتلازمِ هاتينِ الكلمتينِ تلازمًا لا يكادُ ينفكّ.
- أنَّ الإتباعَ ثابتٌ ورودُهُ في بعضِ القبائلِ العربيَّةِ الفصيحةِ وهو ينْسَجِمُ مع طبيعِ العَرَبِيّ الَّذي يَجْنَحُ للتخفيفِ ويَفِرُّ من التَّعقيدِ والثِّقلِ في الكلامِ.
- أنّ العربيَّ يَمِيلُ للتّخْيفِ بالإتْبَاع لما يكثر استخدمُهُ في كلامِهِ.
- أنه وردت قراءات قرآنية موافقة لكثير من الظواهر اللغوية في بعض لغات القبائل العربية، ولا يمنع كونها قراءات شاذّة من الاستشهاد بها.
- أنّ كلمة: (شاذة) في القراءة فظة غليظة منفرة يساء فهمها عند العامّة حتى إنه.
- أنّ قسوة بعض النحاة على بعض القراء في ردّ بعض القراءات بحجة جهل القارئ أو توهمه أمر يجب التصدي له لما للقراءة من قدسية تسمو بها عن اتهامات بعض النحاة للقراء.

هذا وأسْأَلُ اللهَ الكريمَ أن يَغفِرَ لي خَطَأَي وخَطَلَي وأن يَجعلَ عملَي خَالِصًا لوجْهِهِ الكريم .

(المدينة النَّبويَّةُ، غُرَّةُ هلالِ شَعْبَانَ، سنةَ ١٤٤٢ للهجْرة الشَّريفةِ)

الهوامش

(١) ينظر حجة القراءات مقدمة المحقق سعيد الأفغاني

(٢) المحتسب ٣٢

(٣) من تلك المصنفات: القراءات الشاذة لابن خالويه، الحجة للفارسي، إعراب القراءات الشاذة للعكبري، شواذ القراءات للكرماني.

(٤) الرسالة ٤٢

(٥) منها : - الإتباع الحركي في القراءات القرآنية لخلود عبد الجبار
- الإتباع الحركي وموقف النحاة من إعرابه للدكتور محمود فجّال
- شواهد الإتباع الحركي في القرآن وقراءاته للوليد حسن علي مسلم
- الإتباع الحركي فيما ليس بإعراب لأحمد علام

(٦) مقاييس اللغة: ٣٦٢/١

(٧) ينظر معجم المصطلحات الألسنية: ٣١

(٨) ينظر الصوت اللغوي لأحمد مختار عمر٣٧٨

(٩) ينظر اللغة العربية معناها ومبناها ٢٧٣

(١٠) المزهر: ٣٢٦/١

(١١) ينظر ظاهرة الإتباع في المستويات اللسانية لخيرة منصوري: ٧ (رسالة دكتوراه)

(١٢) النمل: ٢٢

(١٣) الإنسان: ٤

(١٤) ينظر في كل ماسبق الأشباه و النظائر ١/ من ١٥ إلى ٢٧

(١٥) ينظر ٦٥٧/٣

(١٦) ينظر ٢٠٨/٢

(١٧) الأشباه و النظائر ٢٧/١

(١٨) رواه البخاري (٣٠٤٧) و مسلم: (٨١٩)

(١٩) تأويل مشكل القرآن: ٣٠ وينظر فتاوى ابن تيمية: ١٣ /٢١٠

(٢٠) تأويل مشكل القرآن: ٣٢

(٢١) تأويل مشكل القرآن: ٣٢

(٢٢) ينظر مقدمة سعيد الأفغاني في تحقيقه حجة القراءات: ١٠، ١١

(٢٣) آية ٦٣ من النور وهي قراءة الباقين من العشرة باستثناء أبي عمرو و ابن كثير و حفص: ينظر: المبسوط في القراءات العشر للأصبهاني ٢٤٩

(٢٤) ينظر تفسير القرطبي ١٤٧/١١

(٢٥) التوبة: ٨٠

(٢٦) تفسيره: ٣/ ٢٠٠

(٢٧) اللسان: ١٥٦/٦ س ب ع

(٢٨) السابق ١٨

(٢٩) المحتسب: ١ /٣٧

(٣٠) معاني القرآن ٣/١

(٣١) المحرر: ١٠٢/١

(٣٢) التبيان ٥/١

(٣٣) البحر ١٨/١

(٣٤) سير أعلام النبلاء ٣٢٣/٦

(٣٥) ينظر المحتسب: ٣٧/١

(٣٦) ينظر إعراب القرآن للنحاس ١٧٠/١ و الدر المصون ١٩٨/١

(٣٧) شرحه الشافية: ٢٦٢/٢

(٣٨) الكشاف: ٥٢/١ (حاشية الجرجاني)

(٣٩) ينظر الخصائص ٦٩/١

(٤٠) الأنفال: ٩

(٤١) تفسيره: ٢٣٦/٧

(٤٢) المحتسب ٣٧/١

(٤٣) إعراب القرآن ١٧٠/١

(٤٤) البحر ١٨/١

(٤٥) النور آية: ٦١

(٤٦) البحر ١٨٤/٣.

(٤٧) المحرر الوجيز ١٩٦/٤.

(٤٨) المدثر: ٣٥

(٤٩) المدثر: ٣٥

(٥٠) تفسيره ٥٥/١٩

(٥١) وصف المباني ١٣٤

(٥٢) الكهف: ٣٨

(٥٣) ينظر الكشاف ٤٨٤/٢

(٥٤) النساء: ١١

(٥٥) النجم: ٣٢

(٥٦) القصص: ٥٩

(٥٧) آل عمران: ٧ و الرعد ٣٩ و الزخرف: ٤.

(٥٨) المحرر الوجيز ٢ / ١٦

(٥٩) ينظر الدر المصون ١ / ١٩٧

(٦٠) في ديوانه ٢٢٧

(٦١) تفسيره ٩٦/١

(٦٢) النكت ١٠٩١/٢

(٦٣) شطر بيت من الطويل بلا نسبة ورد في الكتاب: ١٤٦/٤ وفيه: (اضرب الساقين إمك هابل) وفي الخصائص: ١٤٥/٢ و١٤١/٣ وشرح الشافية للرضي: ٢٦٢/٢ وفيه: (وقد أضرب الساقين. . .) و في الأشباه والنظائر: ٢٥/١ وفيه: (وقال اضرب. . .)

(٦٤) شرحه الشافية ٢٦٣/٢

(٦٥) الأشباه والنظائر: ٢٥/١

(٦٦) الكتاب ١٤٦/٤

(٦٧) السابق

(٦٨) ينظر إعراب القرآن: ٧٠/١.

(٦٩) المحتسب ٣٧/١

(٧٠) النساء: ١١

(٧١) ينظر الخصائص١٤١/٣

(٧٢) ينظر في كل ما: سبق الخصائص: ١٣٩/٢ ومابعدها

(٧٣) شرح الشافية ٢٦٢/٢

(٧٤) السابق

(٧٥) ينظر أماليه ٣٦٨/٢

(٧٦) ينظر شرحه ١٢٩/٧

(٧٧) ينظر مغني اللبيب ٢٧٤

(٧٨) الكشاف ٥٢/١

(٧٩) التبيان ٥/١

(٨٠) ينظر اعراب القران ٧٠/١

(٨١) ينظر اعراب القران ١٧٠/١

(٨٢) معاني القرآن للزجاج ٤٥/١

(٨٣) الإنصاف لابن المنير ٥٢/١

(٨٤) دراسات لأسلوب القرآن العظيم ٢/١/١

المراجـــــــع

- الأشباه و النظائر في النحو للسيوطي، مطبوعات مجمع اللغة بدمشق.
- إعراب القرآن، للنحاس، تحقيق: زهير غازي ط ٢/ ١٤٠٥ عالم الكتب- بيروت.
- آمالي ابن الشجري، تحقيق د. محمود الطناحي مكتبة الخانجي – القاهرة.
- الإنصاف، لابن المنير المالكي، ط: مصطفى الحلبي و أولاده.
- البحر المحيط، لأبي حيان النحوي، ط٢ / ١٤١١ دار إحياء التراث - بيروت.
- تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة الدينوري، علق عليه ووضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت
- التبصرة في القراءات السبع لمكي بن أبي طالب بتحقيق الدكتور غوث الندوي، نشر و توزيع الدار السلفية بومباي ط ٢ /١٤٠٢ هـ.
- التبيان في إعراب القرآن، للعكبري، تحقيق: علي البجاوي، ط عيسى البابي الحلبي.
- تفسير الحافظ ابن كثير، وضع حواشيه وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت .
- تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ط دار الكتب – بيروت ١٩٩٣ م
- الثقل و التخفيف، لآمنة وهب رسالة ماجستير/ جامعة السودان للعلوم ١٤٣٨هـ
- حجة القراءات، لأبي زرعة بن زنجلة، تحقيق: سعيد الأفغاني – مؤسسة الرسالة
- الخصائص، لابن جني تحقيق محمد علي النجار ط ٣ / ١٩٨٣ عالم الكتب.
- الدر المصون،، للسمين الحلبي، تحقيق: د. أحمد الخراط ط١ /١٤١٤ دار القلم – دمشق
- دراسات لأسلوب القرآن الكريم، لمحمد عبد الخالق عضيمة ط ١/ ١٣٩٣ هـ، مطبعة السعادة– القاهرة.
- الرسالة للشافعي، تحقيق أحمد محمد شاكر، ط: دار الفكر.
- سير أعلام النبلاء للذهبي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط و آخرين ط ٧ / ١٤١٠ بيروت – الرسالة.
- شرح ابن يعيش للمفصل، طبعة عالم الكتب – بيروت

- شرح شافية ابن الحاجب، للرضي، تحقيق محمد نور الحسن و آخرين ط ١٩٨٢ / دار الكتب.
- صحيح البخاري، ط ٢ / ١٩٨٢، دار الكتب – بيروت.
- صحيح مسلم، ط ١٤٠٣، بيروت دار الفكر.
- الصوت اللغوي لأحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٧
- ط ٤ / ١٤٠٤ هـ
- ظاهرة الإتباع في المستويات اللسانية (رسالة دكتوراه ٢٠١٢م) لخيرة منصوري جامعة وهران، الجزائر (موقع الدكتور محمد سعيد الغامدي في الشبكة العنكبوتية)
- العمدة في محاسن الشعر و أدبه و نقده لابن رشيق، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجبل – بيروت.
- الكتاب، لسيبويه، تحقيق: عبدالسلام هارون ط ٢ / ١٩٨٣ عالم الكتب
- الكشاف، للزمخشري، ط: مصطفى الحلبي، القاهرة ١٩٧٢ هـ.
- لسان العرب، لابن منظور.
- اللغة العربية: معناها ومبناها لتمام حسان، عالم الكتب، القاهرة ط: ٣: ١٩٩٨
- المبسوط في القراءات العشر لأبي بكر أحمد بن مهران الأصفهاني تحقيق: سبيع حاكمي ط ٢ / ١٤٠٨ هـ
- مجموع فتاوى ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم ط ١٤١٦، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف بالمدينة المنورة.
- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات و الإيضاح عنها، لابن جني تحقيق علي النجدي ناصف و آخرين دار سزكين للطباعة ط: ٢ / ١٤٠٦.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية، تحقيق عبدالسلام الشافي ط ١ / ١٩٩٣ م دار الكتب - بيروت
- المزهر للسيوطي ت: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: ١٩٨١
- معاني القرآن و إعرابه، للزجاج، تحقيق عبدالجليل شلبي ط ١ / ١٩٩٤ م دار الحديث - القاهرة.
- معاني القرآن، للفراء ت حقيق: أحمد نجاتي و النجار طبعة الدار المصرية.
- معجم المصطلحات الألسنية لمبارك مبارك، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٩٥
- مغني اللبيب، لابن هشام الأنصاري، تحقيق: مازن المبارك و محمد حمد الله ط ٥ / ١٩٧٩، دار الكتب.
- النكت في تفسير كتاب سيبويه، للشنتمري تحقيق: عبدالمحسن سلطان ط ١ / ١٤٠٧ الكويت، منشورات معهد المخطوطات العربية.